حكايات من التاريخ

٦

إنها أخت ذلك الرجل

الدكتور
محمد عمر الحاجي

رسوم : إياد عيساوي

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

لا يَخَافُ إلا اللهَ

لَمَّا تَوَلَّى السَّفَّاحُ (عَبْدُ اللهِ بْنُ عَلِيٍّ) مَقَالِيْدَ الحُكْمِ ، وَذَلِكَ بَعْدَ سُقُوطِ الدَّوْلَةِ الأمَـوِيَّـةِ ، واسْتِـلامِ العَبَّـاسِيِّيْـنَ... اسْتَـدْعَـى العَـالِـمَ الجَـرِيءَ (الإمـام الأوْزَاعِيَّ) وَدَارَتْ بَيْنَهُمَا هَذِهِ المُنَاقَشَةُ:

قالَ الأوْزَاعِيُّ ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالى ـ: طَلَبني (السَّفَّاحُ) إلى مَجْلِسِ الخِلافَةِ ،

فَلَمَّا حَضَرْتُ بَيْن يَدَيْهِ؛ رأَيْتُ جُنُوداً يَحْمِلُونَ السُّيُوفَ ، عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ يَسَارِهِ.

فقالَ لِيْ: يا أَوْزَاعِيُّ! ما تَرَى فِيْمَا صَنَعْنَاهُ مِنْ إِزَالَةِ الظَّلَمةِ ـ وَيَقْصِدُ إِزَالةَ الخِلافَةِ الأُمَوِيَّة ـ أَجِهادٌ هُوَ أَمْ رِبَاطٌ؟

قُلْتُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بالنِّيَّاتِ ، وإِنَّمَا لِكُلِّ امرىءٍ مَا نَوى ، فَمَنْ كانَتْ هِجْرتُهُ إِلى الله ورَسُولِهِ؛ فَهِجْرَتُهُ إِلى اللهِ ورَسُوْلِهِ ، ومَنْ كانت هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُها ، أَو امْرَأةٍ يَتَزوَّجُهَا ، فَهِجْرَتُهُ إِلى ما هَاجَرَ إِلَيْهِ».

ثُمَّ قالَ: مَا تَقُوْلُ في دِمَاءِ بَنِيْ أُمَيَّةَ؟

قُلْتُ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لا يَحِلُّ دَمُ امْرىءٍ مُسْلِمٍ إلا بإِحْدَى ثَلاثٍ: النَّفْسُ بالنَّفْسِ ، والثَّيب ـ أيْ: المُتَزوِّجُ ـ الزَّاني ، والتَّارِكُ لِدِينه المُفَارِقُ لِلجَمَاعَةِ».

قالَ: مَا تَقُوْلُ فِي أَمْوَالِهِمْ؟

قُلْتُ: إِنْ كانَتْ في أَيْدِيهِمْ حَرَاماً فَهِيْ حَرَامٌ عَلَيْكَ... ، وإِنْ كانَتْ حَلاَلاً فلا تَحِلُّ لَكَ إلا بِطَرِيقٍ شَرْعِيٍّ!!

... فَبَانَ الغَضَبُ عَلَى وَجْهِ السَّفَّاحِ... ثُمَّ قَالَ: أَلا نُوَلّيكَ القضَاءَ؟

قُلْتُ: أَسلافُكَ لَمْ يَكُوْنُوا يَشُقُّوْنَ عَلَيَّ

في ذَلِكَ ، وأُحِبُّ أَنْ تُتِمَّ ذَلِكَ...!!

قالَ: كأَنَّكَ تُرِيْدُ أَنْ تَنْصَرِفَ؟!

قُلْتُ: نعم! وكانَ الجَالِسُونَ يَنْتَظِرُونَ سُقُوْطَ رأْسِي عَلَى الأرْضِ ، وأَمرَنِي السَّفَّاحُ بالانْصِرَافِ.

حِيْلَةٌ مَقْبُوْلَةٌ!!

رُوِيَ: أَنَّ بَعْضَ التُّجَّارِ قَدِمَ مَدِيْنَةَ رَسُولِ الله ﷺ ، ومَعَهُ حِمْلٌ مِنَ الخُمُر ـ جمع خِمَارٍ ـ السُّوْدِ ، فَلَمْ يَجِدْ لَهَا طَالِباً ، فَكَسَدَتْ عَلَيْهِ ، وَضَاقَ صَدْرُهُ.

فَقِيْلَ لَهُ: ما يُنْفِقُها لَكَ إلا (مِسْكِيْنٌ الدَّارِمِيُّ) ـ وَهُوَ مِنْ مُجِيْدِيْ الشُّعَرَاءِ المَوْصُوفِيْنَ بالظَّرْفِ والخلاعَةِ.

فَقَصَدَهُ ، فَوَجَدَهُ قَدْ تَرَكَ الشّعْرَ ، وتَزَهَّدَ ، وانْقَطَعَ في المَسْجِدِ... ، ورَاحَ يَطْلُبُ مِنْهُ أَنْ يُسَاعِدَهُ ، وبَعْدَ إِلْحَاحٍ ، وتَـرَجٍّ ، و... قـالَ (مِسْكِيْـنٌ): وَلكنِّـي تَرَكْتُ الشِّعْرِ ، وعَكَفْتُ على هَذِهِ الحَالِ؟

فَقَالَ لَهُ التَّاجِرُ: أَنَّا رَجُلٌ غَرِيْبٌ ، ولَيْسَ لِيْ بِضَاعَةٌ سِوَى هَذَا الحِمْلِ.

فأَرْجُوْكَ أَنْ تُسَاعِدَنِي...

فَخَرجَ مِنَ المَسْجِدِ ، وأَعَادَ لِبَاسَهُ الأَوَّلَ ، وَعمِـلَ هَـذيْـنِ البَيْتَيـن ، وشَهَرَهُمَا ، وَهُمَا:

قُلْ لِلْمَلِيْحَةِ فِي الخِمَارِ الأَسْوَدِ

ماذا أَرَدْتِ بِنَاسِكٍ مُتَعَبِّدِ؟

قَدْ كانَ شَمَّرَ لِلصَّلاةِ ثيَابِهِ
حَتَّىٰ قَعَدْتِ لَهُ بِبَابِ المَسْجِدِ

فَشَاعَ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ (مِسْكِيناً الدَّارِميَّ) قَدْ رَجَعَ إلى ما كانَ عَلَيْهِ، وأَحَبَّ واحِدةً ذات خِمَارٍ أَسْوَدَ!

فَلَمْ يَبْقَ بالمَدِيْنَةِ ظَرِيْفَةٌ إلا وطَلَبَتْ خِمَاراً أَسْوَدَ، فَبَاعَ التَّاجِرُ الحِمْلَ الَّذِيْ كانَ مَعَهُ بِأَضْعَافِ ثَمَنِهِ، لِكَثْرَةِ رَغَباتِهِمْ فِيْهِ.

فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهُ... عَادَ (مِسْكِيْنٌ) إلى تَعَبُّدِهِ وانْقِطَاعِهِ...!!

حَقّاً: إِنَّها أُخْتُ ذَلِكَ الرَّجُلِ!!

قالَ الهَيْثَمُ: خَرَجْتُ مِنْ عِنْدِ أَهْلِي

أُرِيْدُ دِيَارَ أقربَاء لِيْ ، وَمَعِيْ نَاقَةٌ أَرْكَبُهَا؛ إِذ نَدَّتْ ـ شَرَدَتْ ، وهَرَبَتْ ـ فَذَهبتْ ، فجَعَلْتُ أتْبَعُهَا حَتَّى أَمْسَيْتُ فأَدْرَكْتُهَا ، ونَظَرْتُ فإِذَا خَيْمَةُ أَعْرَابِيٍّ ، فأَتَيْتُهَا.

فَقَالَتْ رَبَّةُ الخِبَاءِ: مَنْ أَنْتَ؟

فَقُلْتُ: ضَيْفٌ.

فَقَالتْ: وما يَصْنَعُ الضَّيْفُ عِنْدَنا؟ إِنَّ الصَّحْراءَ لواسِعَةٌ... ، ثُمَّ قامَتْ إلى بُـرٍّ ـ قَمْـحٍ ـ فَطَحَنَتـه ، ثـمَّ عَجَنَتْـهُ ، وخَبَزَتْهُ ، وقَعَدَتْ فأكَلَتْ ، ولَمْ أَلْبَثْ أَنْ أَقْبَلَ زَوْجُهَا ومَعَهُ لَبَنٌ... فَسَلَّم ، ثُمَّ قالَ: مَنِ الرَّجُلُ؟

فَقُلْتُ: ضَيْفٌ.

فَقَالَ: مَرْحَباً! حَيَّاكَ اللهُ..! فَدَخَلَ الخِبَاء ، وملأ قَعْباً ـ وِعَاءً كَبِيراً ـ لبناً.

ثُمَّ أَتَانِيْ بِهِ ، وَقَالَ: اشْرَبْ... فَشَرِبْتُ شَرَاباً هنِيْئاً.

فَقَال: ما أراكَ أكَلْتَ شَيئاً ، وما أَرَاهَا أطْعَمَتْكَ!

فَقُلْتُ: لا واللهِ..!

فَدَخَلَ إليْهَا مُغْضَباً... وَقَالَ: وَيْلَكِ! أَكَلْتِ ، وَتَرَكْتِ ضَيْفَك؟!

فَقَالَتْ: وما أَصْنَعُ بِهِ؟ أُطْعِمُهُ طَعَامِيَ؟!

وجارَاها في الكَلامِ حَتَّى شَجَّهَا ـ أَيْ:

ضَرَبَها فَجَرَحَها ، وسالَ دَمُهَا ـ ثُمَّ أَخذ شَفْرةً ، وخَرَج إلى نَاقَتي فنَحَرَها..!

فَقُلْتُ: ما صنَعْتَ عافَاكَ اللهُ؟

فَقال: لا واللهِ مَا بَاتَ ضَيْفي جَائِعاً... ثُمَّ جَمَعَ حَطَباً ، وأَجَّجَ نَاراً ، وأَقْبَلَ يُكَبِّبُ ، ويُطْعِمُني ، ويأْكُلُ ، ويُلْقِي إِلَيْها ، ويَقُوْل: كُلِي لا أَطْعَمَكِ اللهُ! حتَّى إذا أَصْبَحَ؛ تَرَكَنِي ومَضى...

فقَعَدْتُ مَغْمُوماً.. فَلَمَّا تَعَالى النَّهارُ؛ أَقْبَلَ وَمَعَهُ بَعِيْرٌ هَزِيْلٌ... فَقَالَ: هَذَا مكانُ نَاقَتِكَ!!

ثُمَّ زَوَّدَنِيْ مِنْ ذَلِكَ اللَّحْمِ ، وَمِمَّا حَضَرُهُ ، فَخَرَجتُ مِنْ عِنْدِهِ...

وانْصَرَفْتُ... وَضَمَّنِي اللَّيْلُ إلى خِبَاءٍ ، فَسَلَّمْتُ ، فَرَدَّتْ صَاحِبَةُ الخِبَاء السَّلامَ ، وَقَالَتْ: مَنِ الرَّجُلُ؟

فَقُلْتُ: ضَيْفٌ.

فَقَالَتْ: مَرْحَباً بِكَ! حَيَّاك اللهُ ، وعَافاكَ!

فَنَزَلْتُ... ثمّ عَمَدتْ إلى بُرٍّ فَطَحَنَتْهُ ، وعَجَنَتْهُ ، ثُمَّ خَبَزَتْهُ خَبْزَةً رَوَّتْهَا باللَّبَنِ والزُّبْدِ... ، ثُمَّ وَضَعَتْهُ بَيْنَ يَدَيَّ...

ثُمَّ قَالَتْ: كُلْ على بَرَكَةِ اللهِ...!

فَلَمْ أَلْبَثْ أَنْ أَقْبَلَ أَعْرَابيٌّ كَرِيْهُ الوَجْهِ ، فَسَلَّم ، فَرَدَدْتُ عَلَيْهِ السَّلامَ.

فَقَالَ: مَنِ الرَّجُلُ؟

قُلْتُ: ضَيْفٌ.

قالَ: وما يَصْنَعُ الضَّيْفُ عِنْدَنَا؟

ثُـمَّ دَخَـلَ إلـى أَهْلِـهِ ، فَقَـالَ: أَيْـنَ طَعَامِي؟

فَقَالتْ: أَطْعَمْتُهُ الضَّيْفَ.

فَقال: أَتُطْعِمينَ الضَّيْفَ طَعَامِي؟!

فتَجارَيا الكلامَ... ، فرَفَعَ عَصَاهُ وضَرَبَ بِهَا رَأْسَها ، فشَجَّهَا...

فجَعَلْتُ أضْحَكُ... فَخَرَجَ إِليَّ وَهُوَ غَضْبَانُ ، فَقَالَ: مَا يُضْحِكُكَ؟

قُلْتُ: خَيْرٌ.

فَقَالَ: واللهِ لَتُخْبِرنِّي! وإلا هَوَيْتُ عَلَى رَأْسِكَ بِهَذِهِ العَصَا...

فأخْبَرْتُه بِقضِيَّةِ المَرْأَةِ وَالرَّجُلِ اللَّذيْنِ نَزَلْتُ عِنْدَهُمَا قَبْلَهُ...

فأَقْبَلَ عَلَيَّ ، وقالَ: إِنَّ هَذِهِ الَّتِي عِنْدي هِيَ أُخْتُ ذَلِكَ الرَّجُلِ ، وَتِلْكَ الَّتي عِنْـدَهُ أُخْتـي ، فَبِـتُّ لَيْلتِـي مُتَعَجِّبـاً.. وانْصَرَفْتُ!!!

كاسِدٌ أَمْ غَالٍ!!

فـي سُنَـنِ التِّـرمِـذِيِّ وَمُسْنَـدِ أَحْمَـدَ واحِدةٌ مِنَ الحِكَايَاتِ الَّتِي رَوَاهَا الرَّسُوْلُ ﷺ ، فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ـ رضي الله عَنْهُ ـ: أَن رَجُلاً مِنْ أَهْلِ البَادِيَةِ كانَ اسْمُهُ (زَاهِرَ بنَ حَرَامٍ).

وكانَ يَهْدِي للنَّبيِّ ﷺ الهَدِيَّةَ مِنَ

البَادِيَةِ ، فيُجَهِّزُهُ رَسُوْلُ الله صَلَواتُ الله عَلَيْهِ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ...

وذاتَ يَوْمٍ قالَ النَّبيُّ ﷺ: «إِنَّ زَاهراً بادِيَتُنا ، وَنَحْنُ حَاضِرتُهُ».

قال: وكان الرَّسولُ صلوات الله عليه يُحِبُّهُ ، وكانَ دَميماً...

فأتاه النَّبيُّ ﷺ يوماً ، وَهُوَ يبِيْعُ متاعَهُ ، فاحتَضنَهُ مِنْ خَلْفِهِ ، وَهُوَ لا يُبْصِرُهُ ، فَقال: أَرْسِلْنِي! مَنْ هَذَا؟

فالْتَفتَ ، فَعَرفَ النَّبِيَّ ﷺ فَجَعَل يَلْصِقُ بِهِ أكْثَرَ فأكْثَرَ ، وجَعَل النَّبِيُّ صَلَواتُ الله عَلَيْهِ يَقُولُ: «مَنْ يَشْتَرِي العَبْدَ؟».

فَقال: يَا رَسُولَ الله! إِذَاً واللهِ تَجِدُني كَاسِداً!

فَضحِكَ الرَّسُولُ ﷺ ، ثُمَّ قال:

«لَكِنْ عِنْدَ الله لسْتَ بِكَاسِدٍ! لَكِنْ عِنْدَ اللهِ أَنْتَ غالٍ!».

والحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالمِين

* * *